النفـــس الإنسـانيـة

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾
وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾

[الفجر : ٢٧ – ٣٠]

obeikandl.com

obeikandl.com

النفس الإنسانية

ليس هناك أكثر غموضًا من النفس الإنسانية. إنها ما زالت وسوف تظل لغزًا محيرًا لا نعرف عنه إلا أقل القليل. الجسم البشرى ما زال لغزًا محيرًا أمام العلماء والأطباء. ورغم ما نعرف عنه من مكونات الأعضاء ووظائفها، فما زال كثير من المعلومات ناقصًا، وما زال الطب يقف عاجزًا متخاذلا أمام عديد من الأمراض التى تغزو الجسم الإنسانى وتقضى عليه!

والذى يتأمل ما يقول العلماء عن هذا الجسم، وما حباه به الخالق الأعظم من جهاز مناعى لصد هجمات الميكروبات والفيروسات والأجسام الدخيلة؛ يثيره العجب، وتبرز فى ذهنه أكثر من علامة استفهام حائرة ومحيرة!

لقد قدر العلماء عدد خلايا الجسم بثلاثين ألف مليون مليون خلية! ويكشف برنارد جامس فى كتابه «جسم الإنسان» والذى ترجمه الدكتور صلاح الدين سلام عن هذه المعجزة التى اسمها الجسم الإنسانى.. فهو يتحدث عن أسرار هذه الخلايا.. ثم يقول بعد أن يشرح عالم الخلية وطريقة عملها:

obeikandl.com

«لا نعرف حتى الآن كيف تقوم الخلية بأعمالها ووظائفها . . فإنا لا نعرف على وجه الدقة ماذا يحدث عندما تنقسم الخلية، ولا العوامل التى تتحكم فى تكاثرها عند بناء الجسم . . ويجتهد الباحثون من العلماء فى شتى أنحاء العالم إلى التوصل إلى الإجابة الصحيحة عن هذه العضلات الغامضة».

«إن الجسم فى حاجة إلى خلايا متعددة الأنواع، ولذلك فإنه حالما تتكون بضع عشرات من الخلايا، فإنها تبدأ فى التحوُّر، ويتغير شكلها استعداداً للعمل الذى سوف تقوم به عندما يتم تكوين الجسم، وتتجمع الخلايا المتشابهة بعضها مع بعض، مكونة بذلك الأنسجة المختلفة فى الجسم مثل الجلد والعضلات والأعصاب والعظام، وغير ذلك من الأنسجة المتينة التى تربط الجسم بعضه ببعض.

وأعضاء الجسم المختلفة مثل القلب والمعدة تتكون من أنواع عديدة من الأنسجة، لكى لا يغرب عن بالنا أن الوحدة التى تتكون منها الأعضاء والأنسجة المختلفة هى الخلية، فهى الأحجار الصغيرة التى يبنى منها الجسم.

مما سبق نستطيع معرفة ما سيحدث عندما يندمل جرح إصبعك. إن الخلايا الجلدية التى فى حواف القطع تتوالد بسرعة أكثر، وتستمر فى هذا التوالد حتى تغطى، ثم تحل محل النسيج الليفى الذى تتكون منه الندبة. وعندما تعود الحالة إلى أصلها يتوقف التوالد».

ثم يقول المؤلف: «لا نعرف حتى الآن كيف تقوم الخلية بأعمالها ووظائفها، فإنا لا نعرف على وجه الدقة ماذا يحدث عندما تنقسم الخلية، ولا العوامل التى تتحكم فى تكاثر الخلايا عند بناء الجسم.

ويجتهد الباحثون من العلماء فى شتى أنحاء العالم إلى التوصل إلى الإجابة الصحيحة عن هذه العضلات الغامضة»!

ثم يحدثنا المؤلف عن أجهزة الجسم المختلفة، وكيف تقوم بأعمالها، وحاجة الجسم إلى الغذاء حتى يستمر فى حياته.. ثم يقول:

«فالخلايا فى حاجة دائمة لمواد كيماوية لبناء خلايا جديدة والمواد الغذائية التي تتيح النمو للجسم الإنسانى تُسمَّى بالمواد البروتينية، وتستمدُّها من اللحوم والأسماك والبيض، وكذلك من الجوز واللوز والفول والفاصوليا.

والغذاء يزود الجسم بالأملاح المعدنية التى لها نفس أهمية النشويات والدهنيات والبروتينات. ومن أمثلتها الكالسيوم والفسفور والحديد التى بدونها لا نستطيع أن نعيش. كذلك يحتوى الغذاء على الفيتامينات التى تبقينا فى صحة جيدة. إلا أن الغذاء الذى نبتلعه لا يستطيع الوصول إلى الخلايا مباشرة، بل لابد من تجزئته إلى جزئيات دقيقة جدا قبل أن تمتصه الخلايا، كذلك لابد أن نفصل المواد التى يحتاج إليها الجسم من

تلك التى هو فى غنى عنها. ويقوم الجهاز الهضمى بهذه العمليات».

كذلك ترى الإعجاز فى التكامل المبهر بين وظائف الأعضاء المختلفة.. وما يحدثنا عنه الأطباء عن هذا التكامل شيء يثير التأمل، ويثير فى نفس الوقت عديدًا من علامات الاستفهام حول هذه المعجزة البشرية المختلفة فى هذا الجسم الإنسانى. وما يُقال عن غموض وظائف الأعضاء فى الجسم الإنسانى رغم التقدم العلمى والتكنولوچى المذهل.. فإن الباحثين من العلماء وكبار الأطباء تعتريهم الدهشة كلما تعمقوا فى دارسة الجسم الإنسانى وعجائبه.. خاصة عندما نعرف مثلاً أن طول الأوعية الدموية فى الإنسان تصل إلى أكثر من ١٢ ألف ميل! وتزداد الدهشة عندما يقف العلماء عند المخ وقدرته على السيطرة على أعضاء الجسم المختلفة، والتنبيه إلى الخطر الذى يقترب من الإنسان، وردود الفعل السريعة عندما يتعرض لأى خطر. ثم يزداد الإنسان انبهارًا بمعجزة الجسم الإنسانى عندما يتعرض لغزو خارجى من الجراثيم والميكروبات التى تسبب الأمراض، وكيف يضع الجسم خططه ودفاعاته ضد المستعمر الدخيل!

فكل خلية تُعتبَر إعجازًا!

وكل غدة فى الجسم الإنسانى شيء مثير للانبهار.

كما أن معجزة القلب الإنسانى الذى لا يتوقف لحظة واحدة

عن الحركة طوال أيام العمر، وكذلك ما يقوم به الكبد أو الرئتان، وعمليات البناء والهدم فى الجسم، كل ذلك يبرهن على عظمة الخالق وقدرته وإبداعاته التى تفوق فى إعجازها الفهم الإنسانى. وتزداد الأمور إلغازًا عندما نقف على الجانب الآخر من الإنسان.. الجانب العقلى والنفسى.. عمليات التذكر، وعمليات النسيان، وكيف نتذكر أحداث الماضى، وكيف تحفر فى أعماقنا ذكريات نعيشها أو تندثر فى عقلنا الباطن، وما هو هذا العقل الباطن، أو مخزن الذكريات، وما هى هذه الدوافع التى تدفع الإنسان أن يسلك سلوكًا معينًا، أو يحجم عن سلوك معين،وكيف نشأ هذا الوازع الذى يقول لك: «يجب أن تفعل هذا الشىء، ولا تفعل هذا الشىء»؟ وهو ما نطلق عليه الضمير. وما الذى يجعلك تتعذب أو تشعر بالسعادة عندما ترتبط بقيم معينة فى تحقيقها سعادتك وفى عدم تحقيقها تعاستك؟

وما هى هذه العاطفة التى تدفعك إلى سلوك ما عندما تحب وعندما تبغض؟

ومع كل هذه الغرائز أو الدوافع، فالإنسان أكبر منها؛ لأن الإنسان من لحم ودم، وليس آلة ميكانيكية. ليس إنسانًا آليا تضغط على زر معين فيتحرك، وليس «مبرمجًا» حتى تضع يدك على زر معين، فتعرف نتيجة سلوكه.

الإنسان شىء آخر. إنه بجانب اللحم والدم والشحم والعظام تسكنه «روح». . روح تجعل هذا الهيكل الإنسانى يسمع ويحس ويشم ويرى. . ويتذكر الماضى. . ويتصور المستقبل، ويعرف ما مر به من أحداث، ويتوقع على ضوء ربط الأسباب بالمسببات ما سوف يسفر عنه المستقبل.

إنه الكائن الوحيد الذى يمكنه أن يفكر ويتأمل ويتذكر الماضى ويرسم المستقبل على ضوء تجاربه وخبراته. إنه خليفة الله فى أرضه.

والإنسان لا يمكن أن يكون هذا الهيكل أو الجسم الذى نعرفه فقط. كما أن الأمور الأخرى الملازمة له من الحركة والفكر، وما ينبثق عنها من غرائز ودوافع للسلوك، لا يمكن أن تأتى عن طريق الروح فقط. . ولكن النفس الإنسانية هى الروح والجسد معًا.

❀ ❀ ❀

وأذكر أنه دار حوار ذات يوم بينى وبين المفكر الدكتور يوسف عز الدين عيسى الأستاذ الجامعى، وصاحب الإسهامات العلمية المعروفة. وقد سألته إن كان إيمانه بالوراثة أم من خلال دراسته العلمية. . وكان ذلك بعد أن قرأت له دراسته الرائعة «الله أم الطبيعة». . يومها سرح بخاطره طويلا، ثم قال:

فى فجر حياتى كان إيمانى روحيا وراثيا لا أخضعه لأى تفكير.. ولكن عندما بدأت أدرس العلم، وجدتنى عن غير قصد أربط بين الأديان وحقائق العلم التى تجلَّتْ لى فى تركيب الكائنات الحية وسلوكها، فأيقنت عن طريق العلم أن هذا الكون بما فيه من جماد ونبات وحيوان من المستحيل أن يكون وليد صدفة عمياء وتتخبط فى الظلام، بل لابد أن يكون من فعل خالق قدير مخطط ومدبر.

وأعتقد الآن أن الإيمان بوجود الخالق يحتاج إلى قدر من العلم والذكاء. أما عدم الإيمان فشىء سلبى لا يحتاج أى تعمق فى التفكير أو إحاطة بحقائق العلم. فكل من يتأمل فى خلق الله وتركيب الكائنات الحية من نبات وحيوان وحركات الكواكب وأوضاع النجوم لا يسعه إلا الإيمان العميق بوجود الخالق الواحد الأحد.

وقد أعذر الجهلاء والمتخلفين عقليا إذا لم يؤمنوا بوجود الخالق، ولكننى لا أغفر ذلك لدارسى العلم.

والعلماء نوعان: نوع يحيط بحقائق العلم دون التعمق فى دلالاتها. ونوع آخر يغوص فى أغوار تلك الحقائق، ويربط بينها وبين القضايا الكبرى للكون، فيستخلص منها دلائل لا تقبل الشك أو الجدل على وجود الخالق المدبر المنظم لهذا الكون المعجب الذى وجدنا أنفسنا فيه. والعالم من هذا النوع هو العالم الفيلسوف. والفلسفة بمعناها الواسع هى التعمق فى فهم ما وراء ظواهر الأشياء.

ومن العلماء من يمكننا تسمية الواحد منهم «العالم الجاهل». مثل هذا العالم يعرف كل شىء عن انقسام الخلايا، -مثلاً- ويصف بدقة مراحل هذا الانقسام، ولكنه لا يستخلص من ذلك أى شىء خارج نطاق المشاهدة والوصف. أما العالم الفيلسوف فلا يرى مثل هذه الظاهرة بعينيه وفكره الذى يتعمق فى سبر أغور معانيها. فالخلايا تنقسم بطريقة غاية فى التعقيد؛ ليصبح فى كل خلية جديدة العدد نفسه من الكروموسومات. ويختلف هذا العدد فى الحيوانات والنباتات المختلفة، وهو ستة وأربعون كروموسومًا فى الإنسان. ويحدث هذا فى جميع خلايا الجسم ما عدا الخلايا التناسلية، وهى الحيوان المنوى فى الذكر والبويضة فى الأنثى. فى هذه الخلايا بالذات دون غيرها نجد أن خلايا الأنسجة التى تكونها عندما تنقسم لا تنتج خلايا بها ستة وأربعون كروموسومًا مثل جميع خلايا الجسم الأخرى، بل نجد أن عدد الكروموسومات الناتج من الانقسام فى هذه الحالة يكون نصف عدد كروموسومات الجسم، أى يصبح ثلاثة وعشرين كروموسومًا فى الحيوان المنوى وثلاثة وعشرين كروموسومًا فى البويضة. ذلك لأنه عندما يندمج الحيوان المنوى مع البويضة عند التقليح لتكوين أول خلية جسم الجنين تعود الكروموسومات إلى العدد الأصلى الموجود فى جميع خلايا الجسم، وهو ستة وأربعون كروموسومًا. ولو لم يحدث هذا الاختزال إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية (الحيوان المنوى والبويضة) لتضاعف

عدد الكروموسومات فى خلايا الجسم بشكل مطرد. وإذا حدث هذا فلن يولد الجنين؛ فلكل حيوان أو نبات عدد ثابت من الكروموسومات إذا تغيَّر يستحيل تكوين الجنين. وإن اختزال عدد الكروموسومات إلى النصف لا يمكن أن يكون وليد مصادفة عمياء، بل يدخل فى نطاق التخطيط الواعى منذ تكوين أول جنين فى الوجود؛ إذ إن العدد إذا تضاعَفَ فى أول جيل استحال تكوين الجيل الثانى.

وهذا المثال وحده يكفى لإثبات وجود الخالق.

وهناك عديد من الحقائق العلمية تدعو إلى التفكر والتأمل، إذ ليس من قبيل المصادفة أن تكون عضلات الرحم فى أنثى الثدييات أقوى عضلات الجسم، ولو لم تكن بهذه القوة لما استطاعت إخراج الجنين من بطن أمه. ولا يمكننا القول بأنها كانت ضعيفة، وازدادت قوتها مع توالى الأجيال؛ إذ لو لم تكن بهذه القوة منذ أول جيل، لما خرج الجنين لتكوين الجيل الثانى، ولا نقرضَ النوع، وتلاشى من الوجود منذ البداية. وهذا يدل على أن قوة العضلات تدخل فى نطاق التخطيط. ومن المستحيل أن تكون عن طريق المصادفة أو التجربة والخطأ.

ومن أهداف الخلق ضرورة استمرار بقاء النوع. فكل كائن حى نباتًا كان أو حيوانًا لابد أن يترك ذرية تحل محله عندما يموت؛ لتظل الكينونة فى هذا الكوكب الذى نعيش عليه؛ إذ لا

معنى لوجود الكون بلا كينونة. وإنتاج الذرية وتكاثرها يحدثان بطرق شتى فى النباتات والحيوانات المختلفة، ولكن النتيجة واحدة فى جميع الأحوال.

والوصول إلى هدف معين بوسائل عديدة مختلفة يُخرِج الأمر من نطاق المصادفة ويُدخلُه فى نطاق التخطيط الواعى الدقيق. وهناك صفات مشتركَة بين جميع الكائنات الحية، فالذرية لكى تبقى لابد أن تقاوم عوامل الفناء. ولذا نجد أن جميع الكائنات الحية تقاوم عوامل التدمير، ففى الأجسام جهاز للمناعة يقاوم ما قد يغزو الجسم من ميكروبات. إذا جُرح جسم، وسال منه الدم، تكوَّنت سدادة تقفل الجرح؛ لتمنع تدفُّق الدم خارج الجسم. ولولا هذه السدادة التى تتكون على الفور لاستمر نزيف الدم من الجزء المجروح حتى الموت.

بعد ذلك تنقسم الخلايا وتكون نسيجًا جديدًا بدلاً من النسيج الذى تمزَّقَ، ولولا هذه الظاهرة لمات أى إنسان يجرح نفسه، حتى ولو كان الجرح ضيئلا، كما يحدث فى أثناء الحلاقة، ولما أصبح فى الإمكان إجراء أية عملية جراحية.

ومن العجيب أن عملية منع تدفق الدم تحدث فى الحيوانات المختلفة بطرق عديدة: فهى فى الإنسان وفى كثير من الحيوانات تتم عن طريق تكوين جلطة تقفل الجرح. وفى بعض الحشرات كالصرصار وغيره تتجمع بعض الخلايا وتتشابك مكونة سدادة تمنع إراقة الدم. وفى بعض الحشرات الأخرى تتكون جلطة

كتلك التى تتكون فى الإنسان. وهذا يدل دلالة قاطعة على وجود تخطيط للوصول إلى هدف معين.

هذه الأشياء وغيرها هى التى جعلتنى أقرر بكل ثقة أن الوصول إلى الإيمان القوى الراسخ يتطلب علمًا وذكاء. أما عدم الإيمان فسمة من سمات الجهل والتفكر غير المتعمق».

وإذا كان هذا هو رأى الطب والعلم.. وموقف العجز عن فهم وحل لغز هذا الكائن الذى اسمه الإنسان.. فإن الأمر يبدو أكثر صعوبة أمام علماء النفس وهم يحاولون فك طلاسمه.. ومحاولة فهم نزعاته ودوافعه وسلوكه.

عدَّدوا عدد الغرائز.. ثم عادوا فأسموها الدوافع، ثم حصروا كل ذلك فى غريزتين أو دافعين: غريزة الحياة وغريزة الموت!

ثم وجدنا عديدًا من النظريات التى تحاول أن تفسر السلوك الإنسانى وما يعتريه من حب وبغض.. أمل ويأس.. إحباط واندفاع.. خوف ورجاء.. اندفاع وتقهقر.. وغير ذلك مما يعترى الإنسان فى حياته.. وفسروا كل ذلك تفسيرات مختلفة ومتناقضة.

ووقفوا طويلا عند لغز الأحلام التى يراها النائم.. وتساءلوا عن سر هذه الأحلام.. وعلام تدل؟

obeikandi.com

وهل هذه الأحلام تعبر عن رغبات مكبوتة كما يقول «فرويد» أم من الممكن أن تتنبأ بالمستقبل؟ وتعددت وجهات النظر. فالذى يراه «فرويد» يختلف عما يراه «يونج».. يختلف عما يراه «برجسون». كل يحاول أن يعبر من خلال نظريته عن معنى الحلم ومدلوله ومغزاه.

وإذا كان «الحلم» فى رأى علماء النفس هو نشاط ذهنى للنائم فى الحلم، فإنه فى نظر الإسلام نشاط روحى له شق مادى وآخر روحى.. هى النفس التى تجمع بين الروح والجسد، وما يراه الإنسان فى نومه ليس مجرد تعبير عما يمر به من أمور الحياة وأحداث الدنيا وما يعتريه من خلال أعماله اليومية من أحداث. ولكن الحلم يمكن أيضًا أن يكشف عما تأتى به الأيام. وإن رموز هذه الأحلام عندما تتضح من الممكن أن نفسر أمورًا فى المستقبل، كما فى رؤيا يوسف -عليه السلام- التى قصها القرآن الكريم، وتنبئه بالسنوات العجاف التى سوف تمر بها مصر فى زمنه، وما يعقبها من سنوات الخير. وقد تحققت رؤيا يوسف عليه السلام، ووضع على خزائن أرض مصر.

وما أكثر ما رأى كل واحد منا حلمًا، وتحقَّقَ فى واقع دنياه. فالإنسان إذن كائن بالغ الغموض.

إنه يتحرك ويفكر ويسمع ويرى ويحس ويشم ويتذكر الماضى، ويعيش الحاضر، ويرسم المستقبل، على ضوء رؤياه

لهذا المستقبل، من خلال تجارب العمر وثقافته وتجاربه وخبراته.

إنه يمكنه ربط الأسباب بالمسببات، فيصل إلى كشوفات ورؤى جديدة، وهو بقدرته على التحليل والاستنباط يستدل على أمور فكرية تعينه على مسيرة العمر.

ومع ذلك عجز علماء النفس عن تفسير عديد من أمور النفس. وكثرت المدارس النفسية، وتعددت المذاهب، وبقى الإنسان لغزًا من الألغاز رغم بعض الاكتشافات التى تعين الإنسان على فهم نوازعه وسلوكه.

إن الإنسان يعرف لأنه يفكر. ويفكر لأن له عقلا. وهذا العقل الذى وهبه له الخالق سمة من سمات الروح. والروح من أمر الله.

ومن هذه الثنائية -الجسم والروح- تتكون النفس الإنسانية التى ألهمها الله فجورها وتقواها. ولا نريد أن ندخل فى دائرة الجدل المغلقة التى دارت وأدارت عقول علماء الكلام والفلاسفة.

إذا كان الله قد ألهم النفس الفجور والتقوى.. فهل الإنسان مسير أم مخير؟ وهى قضية تناولتها الأقلام فى كل العصور، ولم يخرجوا من هذه القضية إلا بمزيد من علامات الاستفهام.. لأنه إذا كان الإنسان مسيرًا، فلماذا العذاب والعقاب؟ وإذا كان الإنسان مخيرًا، وسيجازى المحسن

بإحسانه، والمسىء بإساءته، فلماذا يقرر الإسلام أن على المسلم أن يؤمن بالقضاء والقدر.. خيره وشره؟

هذه القضية رصد لها الفلاسفة وعلماء الكلام مئات المجلدات!

والمشكلة يجب أن نأخذها من خلال الفهم لروح الإسلام.. فالله قد خلق الإنسان حرا.. جعل له عقلا يعرف به الصواب من الخطأ.. وجاءت رسالات السماء لتوضح له طريق الهدى من طريق الضلال.. الطريق الذى يؤدى إلى حسن المثوبة فى الآخرة، والطريق المؤدى إلى خير الدنيا والآخرة. وقد لخص الإسلام الطريق المستقيم الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وهذا بالطبع يستلزم أولاً وقبل كل شىء الإيمان بالله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴿٣٤﴾﴾ [**فصلت** : ٣٤].

ولكن لأن الإنسان يجهل ما يحدث له فى المستقبل، فالإسلام يطالبه بألا يجزع مما يحدث له، وهذا يعنى أن الله محيط بكل شىء.. ويعرف كل شىء.. ماضى الإنسان وحاضره، ومستقبله، ومقعده فى الجنة والنار. ومعرفة الله وإحاطته بكل شىء ليس معناهما الجبر.

ومن هنا فإن على الإنسان عندما تصيبه مصيبة أو تحل به كارثة، ألا يجزع، وأن يصبر، ويحتسب، فلا تذهب نفسه حسرات، ولا يحطم نفسه بنفسه ولا يملأ فجوات نفسه بالعقد النفسية، وما يتبعها من تدمير الذات. وهذا يأتى عن طريق إيمانه بالقدر، فتستقر أموره النفسية، ويرضى بما قدر له.

يقول وليم چيمس:

«إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان».

فمعرفة الله بما جرى ويجرى وما سيجرى للإنسان لا تعنى الجبر. والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** (٣٨) ﴾ [**فاطر**: ٣٨].

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** (١٨) ﴾ [**الحجرات**: ١٨].

فعلمه شامل لكل ما فى الوجود:

﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٥٩) ﴾ [**الأنعام**: ٥٩].

فالإسلام وفَّر على الإنسان أن يجهد عقله فيما لا يستطيع فهمه أو إدراك كنهه من أمور المستقبل وأمور الحياة.

obeikandi.com

فالإنسان يعيش دنياه.. قد يعيش فى سعادة، وقد ينغص حياته منغصات الحياة من فقر أو ألم أو مرض، أو أن تصيبه بعض البلايا. ولكنه عندما يحاول أن يفسر ذلك تفسيراً عقليا، قد لا يسعفه العقل؛ لأن العقل محدود. ومن هنا فلا حل سوى الصبر والرضوخ لأمر الله.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وقد أعجبتنى دارسة للدكتور محمد كمال جعفر فى كتابه «رحلة بين العقل والوجدان» فهو يناقش هذه القضية من مختلف الزوايا، ومن مختلف آراء علماء الكلام وأهل التصوف.. وحتى لا يتوه الإنسان بين هذه الروايات المتشابكة والآراء المختلفة، فإنه يرى أنه يمكننا أن نستقى من فكرة القدر غذاء روحيا يدفع إلى الثقة المطلقة بالله ورؤية تبصير الإنسان وعدم كفاءته.

فنحن المخلوقون وخالقنا معنا. ونحن الجاهلون وعالمنا معنا. ونحن الضعاف وقوينا معنا. ونحن العاجزون وقادرنا معنا.

واستشعار الحضور الإلهى هو المفتاح الوحيد الذى يفتح القلوب لتنبثق عن مكنون جواهرها، وتفصح عن مكنونات أصحابها.

ويورد قول التسترى تعليقًا على الآية الكريمة من سورة محمد.

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد : ٢٤].

إن الله -تعالى- خلق القلوب، وأقفل عليها بأقفال، وجعل مفاتيحها حقائق الإيمان، فلم يفتح بتلك المفاتيح على التحقيق إلا قلوب أوليائه والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- والصديقين وسائر الناس بخروجهم من الدنيا، ولم تفتح أقفال قلوبهم. والزهاد والعباد والعلماء خرجوا منها وقلوبهم مغلقة؛ لأنهم طلبوا مفاتيحها فى العقل، فضلوا الطريق. ولو طلبوه من جهة التوفيق والفضل لأدركوه.. والمفتاح أن تعلم أن الله قائم عليك.. رقيب على جوارحك، وتعلم أن العمل لا يكمل إلا بالأخلاق مع المراقبة.

ويخرج الباحث من دراسته، فيذكر هذه النقاط حول القدر:

١ ـ أنت مسئول بقدر ما تتمتع به من حرية واختيار.

٢ ـ يُرفَع عنك من المسئولية بمقدار ما يُسلَب منك من حرية.

٣ ـ ليس هناك أى نوع من التناقض أو الاستبعاد بين حريتك واستطاعتك وبين شمول قدرة الله.

٤ ـ لا يجوز فى العقل ولا فى الشرع الاحتجاج بالقدر لتبرير أفعالنا.

٥ ـ أننا لا نملك قطعًا الإلمام بجميع جوانب أى حدث من الأحداث من حيث خيريته أو شريته، وليس لدينا حكم مطلق لا يقبل الاستثناء؛ فما هو خير من جانب قد يشوبه بعض أوجه الشر من جانب آخر. والعكس صحيح. إن إدراكنا الواضح الشمول وتعقد وتشابك الظروف والأحداث يجعلنا نتواضع فى أحكامنا، ولا نغفل عن ملاحظة أنها دائمًا أحكام جزئية مطبقة فى دائرة محدودة؛ لأننا بكل بساطة لا نحيط بكل شىء علمًا.

٦ ـ إذا تعثرنا أو فشلت بعض خططنا، فليس هناك داعٍ للقلق واليأس والكآبة المطلقة. بل الموقف الأمثل هو محاولة تعرُّف أسباب الفشل. فإن أدركناها واستطعنا تحاشيها، فذلك فضل وإحسان. وإن لم ندركها أو لم نجد منها ما يرجع إلى جهودنا، كان لنا أن نغير من وجهة نظرنا لعل فى ذلك صلاحنا، فنحن على أى وجه رابحون وأسعد حظا من هؤلاء الذين يتقوقعون فى صدفة أحزانهم، فيقبرون بعد أن يبيدوا أو يتجمدون حيث تسيل الحياة.

٧ ـ فى الإيمان بالقدر الإلهى والقدرة الربانية شد لعزيمة المؤمن فى البأساء، وإفساح للأمل فى السراء، وضبط الجوامح النفسية فى كليهما.

٨ ـ لا يستعمل القدر كمشجب تعلق عليه أخطاء البشر وآثامهم إلا فى أوقات الضعف والانحلال والتسيب».

❊ ❊ ❊

ولا شك أن الحديث عن «القدر»، وهل الإنسان مسير أم مخير، مشكلة خاضت فيها كل الديانات السابقة على الإسلام. وكان اليهود من الذين رددوا الحديث حول القدر كثيراً.

بينما يرى الإسلام أنه يجب أن نتجنب النقاش فى هذه القضية؛ لأن الإنسان أعجز من الخوض فيها.. فهى من المتشابه.

وقد روى عمر بن شعيب عن أبيه عن جده، قال:

خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم، وهم يتراجعون فى القدر، فخرج مغضبًا، حتى وقف عليهم، فقال:

«يا قوم، بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض. وإن القرآن الكريم لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن فصد بعضه بعضًا. ما عرفتم منه فاعملوا به. وما تشابه منه فانتهوا به».

وقال أبو هريرة:

خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع فى القدر، فغضب حتى احمر وجهه، ثم قال: «أبهذا أمرتم؟! إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر. عزمت عليكم ألا تنازعوا».

ومن رأى الإمام الدكتور عبد الحليم محمود أن مسألة القدر من أهم مسائل المتشابه. وهى فضلا عن ذلك عصيَّة الحل. وهى ليست قابلة للحل. سواء أثيرت فى الشرق أو فى الغرب. وسواء أثيرت فى القديم أو الحديث، أو أثيرت فى البادية أو الحضر. إنها مفرقة بين الباحثين فيها. ومهما طال الجدل بينهم، فلن ينتهوا إلى نتيجة. ومن أجل ذلك كانت الروح الإسلامية العامة تحرم الخوض فيها.

ويرى أن هذه المشكلة بدأت تتسلل شيئًا فشيئًا إلى المجتمع الإسلامى، حتى لقد احتلت يومًا مركز الصدارة فى الفكر الإسلامى النظرى. ولقد مهدت السياسة أولاً لهذا التسلل. وكانت السياسة أول عامل من عوامل إنشاء التفكير النظرى الدينى فى المجتمع الإسلامى السليم.

وعن هذا يقول الدكتور عبد الحليم محمود:

كتب معاوية بن أبى سفيان -بعد أن تولى الملك- إلى المغيرة ابن شعبة يطلب منه أن يكتب إليه الحديث الذى كان يقوله صلوات الله وسلامه عليه أحيانًا وهو على المنبر، فكتب إليه المغيرة أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دبر كل صلاة إذا سلَّم:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا رادَّ لما قضيت. ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

وأخذ معاوية يذيع هذا الحديث من على المنبر مؤمنًا بأنه من عوامل توطيد مركزه فى الأمة.

هذا الاستعمال السياسى للأقوال الشريفة أثار بعض الضمائر التى لم تطمئن إلى هذه الصورة التى اعتبروها استخدامًا للدين، والتى لم يروا فيها مظهراً للخضوع والانقياد له، فهبوا يعارضون فكرة الجبر التى أخذ معاوية يبشر بها مستندًا إلى هذا الحديث الشريف.

ولسنا الآن بصدد التاريخ الكامل لهذه المشكلة. ولقد بينا الآن على الأقل أمرين:

أحدهما: أن هذه المشكلة من المتشابه؛ لأن الرسول ﷺ نهى عن الخوض فيها.

ثانيهما: أن السياسة هى التى بدأت بإدخال هذه المشكلة فى البيئة الإسلامية.

أما النتيجة التى نريد أن نصل إليها من وراء كل ذلك:

أن البحث فى هذه المسألة يجب أن ينزع طلبه من محيط الفكر الإسلامى، وأن ننتزع المسألة مما يسمونه علم الكلام، فإذا ما فعلنا ذلك، فإننا نكون قد أزلنا سببًا مهما من الأسباب التى تفرق بين المسلمين بسبب الخلاف فى العقيدة، ونكون بذلك قد أسهمنا بقسط وافر فى سبيل التوحيد.. وبالله التوفيق».

❋ ❋ ❋

علينا أن ندع النقاش فى الأمور الغيبية التى لا نصل من خلاله إلى حل. . فى المتشابه من الأمور.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

إن النفس الإنسانية آية من آيات الله فى خلقه. وما نعرفه من أسرار عنها يتضاءل أمام الأسرار الهائلة لها.

إذا نظرنا إلى الجسم الإنسانى بأعضائه المختلفة؛ نقف عاجزين مبهورين. وإذا نظرنا إلى الروح التى تبعث فيه الحركة والحياة والحس والحركة والشعور والتفكير؛ نجد أنفسنا أمام لغز من الألغاز. ونعود فنقول: سبحان من خلق هذه النفس الإنسانية.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞٧۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞٨۞﴾ [الشمس: ٧، ٨].

ولنقرأ للإمام ابن كثير وهو يشرح المعنى، فيقول:

«يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه أى بطاعة الله -كما قال قتادة- وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل.

ويروى عن ابن عباس أنه قال:

كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ وقف، ثم قال:

«اللهم آتِ نفسى تقواها، أنت وليها ومولاها، وخير من زكاها».

وكانت أدعية الرسول:

«اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل، والهرم والجبن والبخل وعذاب القبر، اللهم آت نفسى تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. اللهم إنى أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، وعلم لا ينفع، ودعوة لا يُستجاب لها». صدق رسول الله ﷺ.

***

obeikandl.com